مركز بحوث القرآن بجامعة ملايا

كوالالمبور / ماليزيا

بحث مقدم للمشاركة في المؤتمر القرآني الدولي السنوي (مقدس : 4)

بعنوان : علوم القرآن والتفسير بين تقليد القدامى وتجديد المعاصرين

في الفترة من 15 - 18 / إبريل 2014 م

مقدما البحث:

أ . فتحي صالح معتوق بعيج

أ0 خالد إبراهيم علي حسين

علوم القرآن والتفسير بين تقليد القدامى وتجديد المحدثين

مقدمة :

الحمد لله على نعمة الإسلام ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد خير الأنام . وبعد

هذا بحث متواضع حاولت من خلاله تسليط الضوء على موضوع علوم القرآن ومناهج المفسرين من علماء الأمة الإسلامية القدامى والمحدثين ، وذلك للتعرف على هذه العلوم والمناهج ، وكيف وظفت في فهم كتاب الله العزيز ، واستنباط الأحكام منه ، عند المتقدمين والمتأخرين ، وهل هناك تجديد أو تطوير أو تغيير أو فرق يستحق أن يذكر بين سلف علمائنا وخلفهم ؟ ثم هل هناك مستجدات في هذا العصر تختلف عن العصور السابقة ويجب لأجلها تطوير علوم القرآن ؟ أم أن علوم القرآن ومناهج التفسير من ثوابت الشريعة الإسلامية ، ولا تتغير بتغير الزمان والمكان . هذه التساؤلات حاولت أن أجيب عليها من خلال هذا البحث المتواضع ، وسبب اختياري هذا الموضوع بيان أن بعض علوم القرآن الكريم لا يحل فيها التجديد ، ولا يعد ذكر المفسرين لها تقليداً يجب التحرر منه ؛ لأنها أحكام إلهية ثابتة ثبوت الجبال الرواسي وتدخل في قوله تعالى : (ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ)[1] فهي علوم لا تتبدل ولا تتغير بتغير الزمان أو المكان ، ولكن هناك بعض العلوم يمكن أن تتغير وتتطور بتطور الزمان أو تستجد علوم أخرى لم تكن معروفة في السابق ، أو أن أهميتها في هذا الزمان أكثر .

لذا قسمت بحثي هذا إلى الأقسام الآتية : ((المقدمة : ذكرت فيها أهمية الموضوع ، وسبب اختياره ، المبحث الأول : تناولت فيه التعريف بعلوم القرآن في اللغة والاصطلاح ، ثم ذكرت فيه أقسام المهتمين بعلوم القرآن ، المبحث الثاني : ذكرت فيه نماذج من توظيف علوم القرآن في التفسير عند القدامى ، واخترت نموذجين من تفاسير القدامى هما : تفسير الكشاف للزمخشري ، والجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله القرطبي ، المبحث الثالث : نماذج من توظيف علوم القرآن في التفسير عند المحدثين . واخترت نموذجين من تفاسير المحدثين ، هما : التحرير والتنوير لابن عاشور ، ومناهل العرفان للزرقاني)) ثم حاولت أن أقارن بين علمائنا المذكورين في طريقتهم ، ومناهجهم في تفسير القرآن الكريم ، وعلوم القرآن التي ركزوا عليها ووظفوها في فهمهم لكتاب الله واستنباط أحكامه .

---

[1] ـ سورة المائدة ، من الآية (3)

المبحث الأول

أولاً تعريف علوم القرآن[1] : كلمة علوم القرآن مركب إضافي، يتضح معناه ببيان معنى جزأيه، وهما "علوم" و"قرآن". فـ "علوم" جمع علم، والعلم في اللغة : مصدر بمعنى الفهم والمعرفة، يُقال علمت الشيء أعلمه علماً :عرفته) كما في لسان العرب لابن منظور . والعلم ضد الجهل.

وأما في الاصطلاح ؛ فقد اختلفت في تعريفه عبارات العلماء باختلاف الاعتبارات. فعلماء الشريعة يعرفونه بتعريف، وأهل الكلام يعرفونه بتعريف آخر، وله عند الفلاسفة والحكماء تعريف ثالث. وليس شيء من تعريفات هؤلاء بمراد هنا ؛ وإنما المراد : العلم في اصطلاح أهل التدوين، فهم يطلقونه على مجموعة مسائل وأصول كلية تجمعها جهة واحدة، كعلم التفسير، وعلم الفقه، وعلم الطب.....، وهكذا، وجمعه :علوم. فعلوم العربية : العلوم المتعلقة باللغة العربية، كالنحو والصرف والمعاني والبيان والبديع والشعر والخطابة وغيرها. هذا ما يتعلق بلفظ "علوم".

وأما لفظ " القرآن" فقد اختلفوا فيه، فقيل : إنه اسم غير مشتق، وقيل : إنه مشتق، والقائلون باشتقاقه اختلفوا أيضاً، فمنهم من قال : إنه مهموز مشتق من "قرأ"، ومنهم من قال : إنه غير مهموز مشتق من "القَري"، أو من "قرن" على خلاف بينهم ليس هذا محل تفصيله.

ولعل أرجح الأقوال وأقواها في معنى القرآن في اللغة : أنه مصدر مشتق مهموز من قرأ يقرأ قراءة وقرآناً، فهو مصدر من قول القائل : قرأت، كالغفران من "غفر الله لك"، والكفران من "كفرتك"، والفرقان من "فرّق الله بين الحق والباطل". وأما تعريف القرآن في الاصطلاح فهو : كلام الله، المنزل على رسوله النبي محمد بن عبد الله ، المكتوب في المصحف ، المتعبد بتلاوتهِ.

وأما تعريف " علوم القرآن" كمركب إضافي، فله معنيان : أحدهما : لغوي يُفهم من هذا التركيب الإضافي بين "علوم" و"القرآن" وهو أنها العلوم والمعارف المتصلة بالقرآن الكريم، سواء كانت خادمة للقرآن بمسائلها أو أحكامها أو مفرداتها، أو أن القرآن دل على مسائلها، أو أرشد إلى أحكامها. فالمعنى اللغوي لعلوم القرآن يشمل كل علم خدم القرآن، أو أُخذ من القرآن، كعلم التفسير، وعلم التجويد، وعلم الناسخ والمنسوخ، وعلم"الفقه الإسلامي"، وعلم التوحيد، وعلم الفرائض، وعلم اللغة وغير ذلك.

---

[1] ـ مناهل العرفان في علوم القرآن ، عبد العظيم الزرقاني ، 1 / 9 .

والثاني : اصطلاحي خاص بعلم مدون؛ ويُعرّف "علوم القرآن" عَلَماً على علم مدون بأنه: علم يضم أبحاثاً كليةً هامةً، تتصل بالقرآن من نواحٍ شتى، يمكن اعتبار كل منها علماً متميزاً. وهذا التعريف _في نظري _ أجود تعريف لعلوم القرآن من بين التعاريف الأخرى التي ذكرها من عرف هذا العلم. والله الموفق والهادي إلى سواء سبيل.

وقد عرف بعضهم علوم القرآن على أنها :

العلوم التي تخدم القرآن الكريم، من حيث معرفة أول ما نزل منه وآخر ما نزل، ومن حيث معرفة ما نزل منه قبل الهجرة وما نزل منه بعد الهجرة، ومن حيث معرفة أسباب نزول بعض آياته، ومن حيث معرفة جمعه وترتيبه وعدد آياته، وسوره، ومحكمه ومتشابهه وناسخه ومنسوخه، وإعجازه، وأمثاله، وأقسامه، وجدله، وقصصه، وتفسيره.. إلى غير ذلك من العلوم التي تتعلق بالقرآن الكريم.

ـ ماذا نقصد بعلوم القرآن والتفسير :

بالرجوع إلى الكتب التي اهتمت بالقرآن الكريم وعلومه، نجد أن علوم القرآن تعني ـ بصفة عامة ـ جملة من الأبحاث العلمية التي تتصل بالقرآن الكريم، كاللغة العربية ومتعلقاتها، وعلوم الشريعة الإسلامية من توحيد وفقه وأصوله وعلوم الحديث ومعرفة سبب النزول والمكي والمدني والناسخ والمنسوخ وإعجاز القرآن بأنواعه والقراءات القرآنية وغيرها[1]

ثانياً : أقسام المهتمين بعلوم القرآن قديماً وحديثاً .

يمكن تقسيم المهتمين بعلوم القرآن والتفسير بين التقليد والتجديد إلى قسمين أساسيين :

القسم الأول : تعامل أصحاب هذا الاتجاه ـ الذي يمثله العلماء والمفسرون والمفكرون المسلمون ـ مع كتاب الله تعالى تعاملا تعبدياً [2] وشمولياً ، وبحثوا عن

---

[1] ـ للتوسع في هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى كتاب البرهان في علوم القرآن للزركشي الذي جعل علوم القرآن 47 نوعاً، وجاء السيوطي فزاد عليه أنواعا أخرى، بعد استفادته من البرهان، وقد أوصلها إلى 80 نوعا وقال في مقدمة الإتقان في علوم القرآن " ولو نوعت باعتبار ما أدمجته في ضمنها لزادت على الثلاثمائة " ويمكن الرجوع أيضا إلى كتب المتأخرين للاطلاع على أنواع علوم القرآن كمناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني، ومباحث في علوم القرآن للقطان

[2] ـ أي أنهم تعاملوا مع القرآن الكريم مباشرة ، تعامل أناس يؤمنون بهذا الكتاب ـ بخلاف غيرهم ممن تعاملوا مع القرآن دون أن يقرأوه ولو مرة واحدة في حياتهم ـ وتعبدوا الله به في

المعاني لفهمه في ضوء آياته ، وسنة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأقوال الصحابة والتابعين بالرواية عن المصطفى الأمين ، كما استندوا إلى ما أجمعت عليه الأمة الإسلامية في فهم مراد الله ومقاصد تنزيل كتابه ، وكيفية العمل به في الواقع ، والاحتكام إليه في كافة شؤون الحياة

أما ما وقع من اختلاف بين المفسرين ، في منهج التعامل معه فهماً وتطبيقاً ، فيمكن إرجاعه إلى مجموعة من العوامل التاريخية والسياسية والمذهبية ، التي غلب عليها ـ في كثير من الأحيان ـ التعصب للفكرة أكثر من التعصب للحق المخالف لها ، وتقديس الفهم والعمل به في ضوء ذلك التعصب للفكرة .

ومن الأسباب أيضاً ما يتعلق باختلاف العبارات ، فالاختلاف الأول يدخل فيما يسمى ((الاختلاف المذموم)) وهو في الشريعة الإسلامية اختلاف ممنوع ؛ لأنه ((اختلاف تضاد)) ، كطلب المعنى الباطن المخالف قلباً وقالباً للمعنى الظاهر، مثال على ذلك : الصوم ؛ فظاهر معناه أنه الإمساك عن المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، خلال شهر رمضان . وهذا ما أجمعت الأمة الإسلامية عليه أما من يزعم بأن الصوم هو الإمساك عن إفشاء الأسرار التي يلقيها الشيخ على أتباعه ، كما فعل كثير من الدجالين الذين لبسوا على عوام المسلمين أمور دينهم ، لجهلهم بتعاليم الدين ، وعدم تلاوتهم للقرآن الكريم الذي ذكر الله فيه صوم رمضان وحقيقته وأحكامه ومقاصده[1] .

والنوع الثاني يندرج في ((الاختلاف المحمود)) وهو في حكم الإسلام اختلاف مشروع ؛ لأنه ((اختلاف تنوع)). وعقد الإمام الزركشي فصلا في الأسباب المؤدية

صلواتهم ، وابتغوا به الأجر بتلاوته وطلبوا المعنى منه، وسعوا إلى أن يهتدوا به في أمورهم كلها ، عقيدة وشريعة، وأن يصلحوا به أحوالهم في الدنيا والآخرة، ورقت قلوبهم رغبة ورهبة منه بصفة دائمة ، لاعتقادهم أن هذا القرآن سيأتي يوم القيامة حجة لهم أو عليهم . فمن تعامل مع القرآن بهذه الحيثيات وغيرها كيف له أن يطلب التجديد المناقض لأسمى ما جاء به هذا الكتاب الذي ارتضاه الله تعالى ليكون هاديا إلى الحق والاستقامة في الأفكار والأقوال والأعمال. قال عز وجل:(ڃ ڃ ڇ ڇ ڇڇ ڇ ڇ ڍ ڍ ڌ ڌ ڎڎ ڈ ڈ ژ ژ ڑ) سورة الأنعام، الآية: 154

[1] ـ ينظر فضائح الباطنية لأبي حامد الغزالي ففيه فضح لهذا الاتجاه الباطني المتطرف أي المجانب للصواب، الذي يتجلى في هدم الشريعة الإسلامية وتكاليفها، وهو نفس الدور الذي ما زال يقوم به أصحاب الاتجاه العقلاني المتطرف أيضا بنفس المقياس ، وإن اختلف المنهج بينهما، وهما دوران قديمان تاريخيا، جديدان في الأثواب التي يظهرون بها حسب كل عصر وظرف. وكلاهما اتجاه باطل ، لمخالفتهما للحق الواضح والناصح والفاضح. قال تعالى: (ڳ ڳ ڳ ڳ ڱ ں ڻ ڻ ڻ ڻ ۀ ۀ ہ ہ ہ ہ ھ ھھ ھ ے ے ۓ ۓ) سورة الإسراء، الآيتان: 81 - 82

للاختلاف ، وأتبعه بفصل آخر للإجابة عن بعض الإشكالات[1] ، وقد صدق الشاعر عندما قال:

عباراتنا شتى وحسنك واحد وكل إلى ذاك الجمال يشير

وهو كلام واضح في بيان الاختلاف بين الواصفين للحسن بعبارات مختلفة ؛ لأنها لا تتناقض في المعنى الذي هو الحسن . هذا وإن الاختلاف الذي حصل في تاريخ المسلمين كان محدوداً جداً ، وستبقى دائرته ضيقة ، لذا وجب التنبه إلى أن الأمر هيِّن ؛ لأنه لم يشمل جميع سور القرآن الكريم وآياته ، ولأن أصحابه سيبقون قلة بالمقارنة مع ما عليه الأمة الإسلامية ـ في عمومها ـ من التمسك بالنقل الصحيح، واتباع الرأي الصريح . والأمر هين من جهة أخرى ؛ لأنه يمكن تصحيح الأخطاء بالعلم ؛ فهو الفيصل بين المختلفين . وإن مصدر العلم الأساس هو الوحي : القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، لقوله تعالى : (□ □ □ □ □ □ □ ى ى يي □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □□ □ □ □ □ □)[2] ويأتي العقل في الدرجة الثانية ؛ لأنه من الوحي يأخذ حقائق الإيمان والنور ، والعلم والمعرفة ، والحق والهدى ، والرشاد والأخلاق ، والسداد في الذكر والفكر، وفي القول والعمل ، وفي إصلاح الشؤون الخاصة والعامة ، وفي التطلع إلى السعادة في الحياة الدنيا والآخرة . ولا يقوم بذلك إلا المؤمن، ولا يكون ذلك إلا للمؤمن الذي يقدس القرآن ، ويجعله مرجعه الأول ، ومنبعه الصافي الذي يغترف منه ، في كل وقت وحين ؛ لأنه الكتاب الذي يعلو ولا يعلى عليه ، فعند الاختلاف يكون هذا الكتاب الرباني هو الحَكَم ، قبل اللجوء إلى العقل الإنساني .قال تعالى: (ک ک ک ک گ گ گ گ ڳ ڳ ڳ ڳ ڱ ڱ ڱ ڱ ں [3] وقال عز وجل أيضاً : (ۆ ۆ ۈ ۈ ۇٴ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ې ې ې ې □ □ □ □ □ □ □)[4] وقال سبحانه كذلك : (ٱ ٻ ٻ ٻ ٻ پ پ پ پ ڀ ڀ ڀ ڀ ٺ ٺ ٺ ٺ ٿ ٿ ٿ ٿ ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ)[5] ، وهذا لا يعني أن العقل لا قيمة له ، وأنه عليه أن يتبع و لا يبتدع ؛ بل جاء القرآن بدعوة المشركين ومجادلتهم بالآيات الكونية : الطبيعية ، والإنسانية ، لكي تتفتّح عقولهم المغلقَة ، ولكي تتدبر وتتفكر في خلق الله .وكل من يتلو القرآن الكريم يجد أن عدداً كبيراً من آياته تأمر بإعمال العقل ، وتنهى عن إهماله ، من ذلك قوله تعالى : (ې

---

[1] ـ ينظر البرهان في علوم القرآن بتصرف، 2 / من ص 54 إلى 66

[2] ـ سورة النساء ، الآية (58) .

[3] ـ سورة الحجرات ، الآية (1) .

[4] ـ سورة النساء الآية (64) .

[5] ـ سورة الأحزاب ، الآية (36) .

ې ې ې □ □ □ □ □ □ □ □ □□ □ □ □ □ □

□ □ □ □)[1] وقوله تعالى : (ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۇٴ ۋ ۋ ۅ

ۅۋ ۋ ې ېې ې □ □)[2] وقال سبحانه في موضع آخر:(ٱ ٻ ٻ ٻ ٻ پ

پپ پ ڀ ڀ ڀ ڀ ٺ ٺ ٺ ٺ ٿ ٿ ٿ ٹ ٹٹ ٹ ڤ ڤ ڤڤ ڤ ڦ

ڦ)[3] ... [4] هذه الآيات الكريمة وغيرها كما تلاحظ تأمر الإنسان بأن يعمل عقله ، ويتدبر في هذا الكون ، حتى يصل إلى الحقيقة الكاملة ، وهي أن لهذا الكون إلهاً واحداً خالقاً ورازقاً ، سبحانه وتعالى عما يشركون .

القسم الثاني:

زعم أصحاب هذا الاتجاه أن التفسير ليس حكراً على العلماء والمفسرين المسلمين ، وأنهم ليسوا أوصياء على القرآن ؛ بل من حق كل دارس أو مثقف ـ مسلماً كان أو غير مسلم ـ أن يدلي برأيه في الموضوع ، وأن يسهم في كشف المعاني من القرآن ، وأن يأتي بالجديد ، وذلك بتطوير مناهج المفسرين القدامى ، بل تجاوزها ؛ لأنها تحول بين القرآن والدارسين له ، وتضيق الخناق عليهم للوصول إلى الفهم الصحيح لكلماته .

المبحث الثاني : نماذج من توظيف علوم القرآن في التفسير عند القدامى .

لقد بذل علماؤنا القدامى ـ رحمهم الله ـ قصار جهدهم في البحث على مراد الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز ، واستنبطوا الأحكام ، ونقبوا عن كنوز هذا الكتاب العظيم ، وصنفوا علوماً عديدة استنبطوها من دراستهم وفهمهم لكتاب الله العزيز ، هذه العلوم ـ والتي تسمى علوم القرآن ـ وظيفتها المساعدة على فهم كتاب الله ، والتعرف على أحكامه ، وكيف يمكن أن توظف هذه العلوم توظيفاً صحيحاً في تفسير القرآن الكريم ، واستنباط الأحكام منه ، هذه أمثلة لبعض المفسرين القدامى ، الذين حاولوا أن يستخرجوا جزاء من كنوز القرآن الكريم ، وأن يوظفوها في فهمه واستنباط أحكامه :

---

[1] ـ سورة الحج ، الآية (46) .

[2] ـ سورة النمل ، الآية (62) .

[3] ـ سورة الأعراف ، الآية (179) .

[4] ـ عالج عدد من الأساتذة والباحثين مسألة الفكر والعقل وبينوا أهميته في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية مما يدل على أن الوحي الإلهي دعا الإنسان إلى إعمال العقل، ونوه به، ورفع شأن مستخدميه، وذم التقليد والراكنين إليه.. من تلك البحوث القيمة التي عالجت هذا الموضوع ـ وهي أكثر من أن تحصى ـ كتاب أزمة العقل المسلم للدكتور عبد الحميد أبو سليمان، وإعادة تشكيل العقل المسلم للدكتور عماد الدين خليل، والقرآن والنظر العقلي للدكتورة فاطمة إسماعيل، والجمع بين القراءتين: قراءة الوحي وقراءة الكون للدكتور طه جابر العلواني ..

أولاً : منهج الزمخشري[1] في توظيف علوم القرآن في التفسير :

ذكر الزمخشري ـ رحمه الله ـ المشهور بجار الله [2] ، في مقدمة تفسيره: " قوله : (((بِسمِ اللَّه الرّحمن الرّحيم) الحمد للَّه الذي أنزل القرآن كلاماً مؤلفاً منظماً، ونزله بحسب المصالح منجماً، وجعله بالتحميد مفتتحاً وبالاستعاذة مختتماً وأوحاه على قسمين متشابهاً ومحكماً وفصله سوراً وسوّره آياتٍ . وميز بينهنّ بفصولٍ وغاياتٍ . وما هي إلا صفات مبتدئ مبتدع ، وسمات منشئ مخترع فسبحان من استأثر بالأوّلية والقدم ، ووسم كل شيء سواه بالحدوث عن العدم أنشأه كتاباً ساطعاً تبيانه ، قاطعاً برهانه وحياً ناطقاً ببيناتٍ وحججٍ، قرآناً عربياً غير ذي عوج مفتاحاً للمنافع الدينية والدنيوية ، مصداقاً لما بين يديه من الكتب السماوية معجزاً باقياً دون كل معجز على وجه كل زمان ، دائراً من بين سائر الكتب على كل لسان في كل مكان أفحم به من طولب بمعارضته من العرب العرباء، وأبكم به من تحدّى به من مصاقع الخطباء، فلم يتصدّ للإتيان بما يوازيه أو يدانيه واحد من فصحائهم ، ولم ينهض لمقدار أقصر سورة منه ناهض من بلغائهم على أنهم كانوا أكثر من حصى البطحاء، وأوفر عدداً من رمال الدهناء))[3] ثم من أملأ العلوم بما يغمر القرائح وأنهضها بما يبهر الألباب القوارح من غرائب نكت يلطف مسلكها ، ومستودعات أسرار يدق سلكها ، علم التفسير الذي لا يتم تعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم ، كما ذكر الجاحظ في كتاب نظم القرآن ؛ فالفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتوى والأحكام، والمتكلم وإن بزَّ أهل الدنيا في صناعة الكلام ، وحافظ القصص والأخبار، وإن كان من ابن القِرِّية أحفظ ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ، والنحويُّ وإن كان أنحى من سيبويه، واللغوي وإن علك اللغات بلحييه ، لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، و لا يغوص على شيء من تلك الحقائق، إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما : علم المعاني وعلم البيان ، وتمهَّل في ارتيادهما آونة ، وتعب في التنقير عنهما أزمنة ، وبعثته على تتبع مظانهما همة في معرفة لطائف حجة الله ، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله ، بعد أن يكون

---

[1] ـ العَلاَّمَةُ، كَبِيْرُ المُعْتَزِلَةِ، أَبُو القَاسِمِ مَحْمُوْدُ بنُ عمر بن محمد، الزمخشري الخوارزمي النحوي، صاحب "الكشاف" و"المفصل".رحلَ، وَسَمِعَ بِبَغْدَادَ مِنْ نَصْرِ بنِ البَطِرِ وغيره. ، (ت 538 هـ) ينظر سير أعلام النبلاء (15/ 17) .

[2] ـ من عجائب هذا الزمان أننا نجد عددا من المثقفين مفتونين بالفكر المعتزلي ـ لا لكونه فكراً إسلامياً وإنما لكونه فكراً عقلانياً ـ نجدهم يشيدون بجهود الزمخشري الذي استطاع توظيف نظريات المعتزلة في تأويل نصوص القرآن الكريم، في تفسيره: (الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل) فلماذا لم يسلكوا سبيله في مجاورة بيت الله والدفاع عن تعاليم الإسلام وعلوم الشريعة وعلمي البيان والمعاني؟ ونفس الشيء فعلوه مع ابن رشد الفيلسوف، مع العلم أن ابن رشد رحمه الله كان طبيباً وفقيهاً مسلماً ، ولم يكن فيلسوفاً فقط .

[3] ـ المقدمة ، من كتاب الكشاف للزمخشري ، ص 1 .

آخذاً من سائر العلوم بحظ ، جامع بين أمرين تحقيق وحفظ ، كثير المطالعات ، طويل المراجعات ، قد رجع زماناً ، ورُجِع إليه ، وردَّ ورُدَّ عليه ، فارساً في علم الإعراب ، مقدماً في حملة الكتاب ، وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها ، مشتعل القريحة وقّادها ، يقظان النفس درّاً كاللمحة وإن لطف شانها ، منتبهاً على الرمزة وإن خفي مكانها ، لا كزّاً جاسياً ، ولا غليظاً جافياً ، متصرّفاً ذا دربة بأساليب النظم والنثر، مرتاضاً غير ريض بتلقيح بنات الفكر، قد علك كيف يرتب الكلام ويؤلف، وكيف ينظم ويرصف ، طالما دفع إلى مضايقة ووقع في مضاحضة ومزالقة[1] .

من خلال ما تقدم يتضح لنا أن الزمخشري أدرك أن التفاسير، التي اطلع عليها، لم تف بالغرض الذي ألفت من أجله ؛ وهو بيان مراد الله تعالى ، لعدم عنايتها الدقيقة، إلى حد " البراعة " بعلمي " البيان والمعاني"، وهما العلمان اللذان رأى صاحب الكشاف أنهما يكشفان أسرار القرآن الكريم ، وبلاغته ، ولهذا اشتغل في تفسيره على إبرازهما ، ووظفهما في فهم كتاب الله ، وإظهار معجزاته ، وعلومه ، إلى جانب علوم القرآن الأخرى التي ذكرها وهي : علم الفقه ، وعلم الكلام ، والقصص ، والأخبار ، والوعظ ، والنحو ، واللغة . هذا باختصار منهج الزمخشري في كتابه الكشاف ، ومحاولته استنباط وفهم علوم القرآن ، وهو من علماء القرن السادس الهجري .

ثانياً : منهج القرطبي في علوم القرآن والتفسير (ت 671 هـ)

تحدث الإمام القرطبي ، رحمه الله ـ في مقدمة تفسيره ـ عن مسؤولية العلماء في تلاوة القرآن حق التلاوة وتدبره وتفسيره ، والتماس المعنى منه ، لا من غيره ، مع بيان ما أعد الله لهم من الأجر والثواب على عملهم ، والرفع من قدرهم . وعلى هذا الأساس" صار الكتاب أصلاً ، والسنة له بياناً، واستنباط العلماء له إيضاحاً وتبياناً[2]

وبعد ذلك ذكر ـ رحمه الله ـ شرطه في التفسير[3] من إضافة الأقوال إلى قائليها، والأحاديث إلى مصنفيها ، والإضراب عن كثير من قصص المفسرين ، وأخبار المؤرخين ، وعوّض ذلك بتبيين آي الأحكام بمسائل يبيّن فيها ما تحتوي عليه من

---

[1] ـ تفسير الكشاف ، 1 / 3 - 17 .

[2] ـ الجامع لأحكام القرآن، والمبيِّن لِما تضمّنه من السّنّة وآي الفرقان، لأبي عبد الله القرطبي ، خطبة المصنف، 8/1 .

[3] ـ إن قول القرطبي " شرطي في هذا الكتاب " في مقدمة تفسيره 1 / 8 ، يفيد معنى المنهج الذي اتبعه في تأليف الكتاب.

أسباب النزول ، والتفسير الغريب والحِكم ؛ فإن لم تتضمّن حُكْماً ذَكَرَ ما فيها من التفسير والتأويل، هكذا إلى آخر الكتاب .

وأعقب ذلك بالتفصيل في علوم القرآن على شكل أبواب ، مستدلاً بنصوص من القرآن الكريم ، وصحيح السنة النبوية ، وأقوال الصحابة والتابعين وتابعيهم ، وأقوال العلماء ، بأسلوب علمي رصين يجمع بين النقل والتحليل ، والمناقشة والترجيح . ونظراً لأن المقام لا يتسع فسأكتفي بذكر عناوين تلك الأبواب فقط التي سار عليها القرطبي في منهجيته في تفسيره وهي[1] :

1 - باب ذِكر جُمَل من فضائل القرآن ، والترغيب فيه ، وفضلِ طالبه وقارئه ومستمعه والعامل به .

2 - باب كيفية التلاوة لكتاب الله تعالى ، وما يكره منها وما يحرم ، واختلاف الناس في ذلك .

3 - باب تحذير أهل القرآن والعلم من الرياء وغيره .

4 - باب ما ينبغي لصاحب القرآن أن يأخذ نفسه منه ولا يغفل عنه.

5- باب ما جاء في إعراب القرآن وتعليمه والحثِّ عليه ، وثواب من قرأ القرآن معرباً.

6 - باب ما جاء في فضل تفسير القرآن وأهله .

7 - باب ما جاء في حامل القرآن ومن هو، وفيمن عاداه.

8 - باب ما يلزم قارئ القرآن وحاملَه من تعظيم القرآن وحرمته .

9- باب ما جاء من الوعيد في تفسير القرآن بالرأي والجرأة على ذلك ومراتب المفسرين.

10- باب تبيين الكتاب بالسنة ، وما جاء في ذلك.

11- باب كيفية التعلم والفقه لكتاب الله تعالى ، وسنة نبيه - صلى الله عليه وسلم - وما جاء أنه سُهِّلَ على من تقدَّم العمل به دون حفظه .

---

[1] - هذه العناصر هي التي ذكرها القرطبي في شرطه في التفسير في خطبته- بتصرف- 1 /8

12- باب معنى قول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " إن هذا القرآن أُنْزِلَ على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسَّر منه ". وضمن هذا الباب ، فصل: [في القراءات ونسبتها] وفصل: في ذكر معنى حديث عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم.

13- باب ذكر جمع القرآن، وسبب كتب عثمان المصاحف وإحراقِه ما سواها، وذكر من حفظِ القرآن من الصحابة رضي الله عنهم في زمن النبي صلى الله عليه وسلم .

14- باب ما جاء في ترتيب سُوَرِ القرآن وآياتِه، وشكله ونقطه وتحزيبه، وتعشيره، وعدد حروفه وأجزائه وكلماته وآيه. وضمن هذا الباب، فصل: في وضع الأعشار .

15- باب ذكر معنى السورة والآية والكلمة والحرف.

16- باب هل ورد في القرآن كلمات خارجة عن لغات العرب أو لا ؟.

17- باب ذكر نكت في إعجاز القرآن، وشرائط المعجزة وحقيقتها. وضمن هذا الباب، فصل: في أقسام المعجزة .

18- باب التنبيه على أحاديث وضعت في فضل سُوَر القرآن وغيره .

19- باب ما جاء من الحجة في الرّدّ على من طعن في القرآن وخالف مصحف عثمان بالزيادة والنقصان .

وجاء في ختام ذكر هذه العلوم قضايا تتعلق بالاستعاذة والبسملة . هذه تسعة عشرة باباً من أحكام القرآن الكريم وعلومه ، وكان ـ رحمه الله ـ يوظف هذه العلوم في خدمة كتاب الله سواءً في التفسير أو الفهم أو استنباط الأحكام[1] وقد أبدع فيها أيما إبداع ، حتى صار كتابه مرجعاً عظيماً ، يحتاج إليه أهل هذا الفن وحتى عامة المسلمين فيما يشكل عليهم ، رحم الله مؤلفه ، وأسكنه جناته .

المبحث الثالث : نماذج من توظيف علوم القرآن في التفسير عند المحدثين.

---

[1] ـ مثال على توظيفه (النسخ) أحد علوم القرآن في استنباط الأحكام
الثانية- معرفة هذا الباب أكيدة وفائدته عظيمة، لا يستغني عن معرفته العلماء، ولا ينكره إلا الجهلة الأغبياء، لما يترتب عليه من النوازل في الأحكام، ومعرفة الحلال من الحرام. روى أبو البختري قال: دخل علي رضي الله عنه المسجد فإذا رجل يخوف الناس، فقال: ما هذا؟ قالوا: رجل يذكر الناس، فقال: ليس برجل يذكر الناس! لكنه يقول أنا فلان ابن فلان فاعرفوني، فأرسل إليه فقال: أتعرف الناسخ من المنسوخ؟! فقال: لا، قال: فاخرج من مسجدنا ولا تذكر فيه. وفي رواية أخرى: أعلمت الناسخ والمنسوخ؟ قال: لا، قال: هلكت وأهلكت!. ومثله عن ابن عباس رضي الله عنهما. ينظر : تفسير القرطبي (2/ 62)

لقد قام علماؤنا الأفاضل في المقرون المتأخرة بمجهودات عظيمة في مجال الكشف عن علوم القرآن وفهمها فهما صحيحاً ، ثم توظيفها في خدمة كتاب الله العزيز وبيان أحكامه ، فقاموا بدراسة التراث القديم ، وتصحيحه وتعديله حسب مقتضيات العصر من جهة ، مع عدم الإخلال بأحكام الشريعة أو البعد عنها من جهة أخرى ، مع فائق الاحترام والتقدير لأسلافنا السابقين ومجهوداتهم ، هذه نماذج لعلماء متأخرين أبين من خلالها ما أضيف إلى علوم القرآن في هذه العصور أو حذف منها ، أو وظف أكثر في هذا الزمان .

أولاً ـ منهج الطاهر بن عاشور في توظيف علوم القرآن في التفسير (ت1973)

يعتبر ابن عاشور من الأعلام البارزين ومن علماء الأمة المشهورين ، الذين بذلوا قصار جهدهم في إبراز عظمة كتاب الله ومقاصده ، وقد جمع ـ رحمه الله ـ في تفسيره الذي سماه (تحرير المعنى السديد، وتنوير العقل الجديد ، من تفسير كتاب الله المجيد)[1] بين مختلف العلوم النقلية والعقلية، مع استحضاره للواقع .

وقد بيَّن في تمهيد تفسيره منهجه في التعامل مع التفاسير السابقة ، تعامل العالم المتمكّن والمتواضع ، وليس تعامل المتعالم ، والمتكبر ، والمحتقر ، والمنتقد لجهود السابقين.. ومما أثار انتباهه أن بعض المعاصرين اتجهوا ـ في التعامل مع جهود السابقين ـ أحد الاتجاهين : المبالغة في التعظيم و " الإجلال " أو الغلو في الإجحاف و "الإخلال ". قال رحمه الله: ((ولقد رأيت الناس حول كلام الأقدمين أَحَد رجُلين : رجل معتكف فيما أشاده الأقدمون ، وآخر آخذ بمعوله في هدم ما مضت عليه القرون ، وفي كلتا الحالتين ضُرٌّ كثير، وهنالك حالة أخرى ينجبر بها الجناح الكسير، وهي أن نعمد إلى ما أشاده الأقدمون فنهذِّبَه ونزيدَه ، وحاشا أن ننقضه أو نبيدَه ، علْماً بأن غمضَ فضلهم كُفران للنعمة ، وجَحْدَ مزايا سلَفها ليس من حميد خصال الأمة ، فالحمد لله الذي صدَّق الأمل ، ويسَّر إلى هذا الخير ودلَّ))[2]

---

[1] ـ اختصر المؤلف رحمه هذا العنوان وسماه (التحرير والتنوير من التفسير) وهو تفسير ضخم يتألف من ثلاثين جزءاً، طبعته الدار التونسية للنشر سنة 1984، وأعيد طبعه بالتعاون مع الدار الليبية للنشر والتوزيع والإعلان .

[2] ـ التحرير والتنوير 1 / 7، أين هذا الخلق العلمي الرائع من الذين يزعمون أنهم يرفعون راية" التجديد "، وهم لم يطلعوا على جهود السابقين ، بل لم يشموا رائحة كتبهم وذخائرهم ، واكتفوا بترديد عبارة " لا للتقليد"، وهي عبارة مغرية وجذابة لمن لم يكن له قُلب ولم يلقي السمع وهو شهيد ، ولو رجعوا إلى القرآن الكريم ـ حقاً وصدقاً ـ وقرأوه بتجرد لوجدوا عكس ما يدعون إليه ، فكيف يجوز أن نطرح جهود علماء أفاضل أفنوا أعمارهم في خدمة كتاب الله

وقبل الشروع في التفسير، كتب المؤلّف عشر مقدمات منهجية ، وعلوم أساسية ، أشار إلى أهمية اكتسابها للاستعانة بها على فهم كلام الله ومراده ، أيضاً استنباط الأحكام المتعلقة ببعضها ، والتي تبين منهجه في تفسيره التحرير والتنوير.

وهذه المقدمات العشر هي :

1 - في التفسير والتأويل وكون التفسير عِلماً.

2 - في استمداد علم التفسير من علم العربية وعلم الآثار ومن أخبار العرب وأصول الفقه وعلم الكلام والقراءات القرآنية.

3 - في التفسير بغير المأثور ومعنى التفسير بالرأي وحكمه.

4 - فيما يحق أن يكون غرض المفسر (علم المقاصد الأصلية التي جاء القرآن لتبيانها، وهي ثمانية : إصلاح الاعتقاد ، وتهذيب الأخلاق ، وتشريع الأحكام الخاصة والعامة ، وسياسة الأمة ، وجمع كلمتها وصفها ، وقصص السابقين للعبرة، والتعليم مع مراعاة المستويات المختلفة للمخاطبين ، والترغيب والترهيب ، والإعجاز .

5- في أسباب النزول.

6 - في القراءات القرآنية.

7 - في قصص القرآن.

8 - في اسم القرآن وآياته وسوره وترتيبها وأسمائها.

9 - في أن المعاني التي تَتَحمَّلُها جُمَلُ القرآنِ تُعْتَبر مرادةً بها .

10 - في إعجاز القرآن ، ويليه مبتكرات القرآن ، وعادات القرآن .

إن هذه المقدمات العشر التي استغرقت إحدى وعشرين ومائة صفحة من الجزء الأول ، لتدل على ما بذله الإمام الطاهر بن عاشور من جهد كبير في تدبّر كتاب الله تعالى والاطلاع الواسع على تفاسير القدامى ، على اختلاف مذاهبهم ومناهجهم ، فجاء تفسيره كاشفاً عن ثروة ضخمة من أنواع البيان لكلام الحق سبحانه ، من خلال أفانين ودقائق البلاغة ، ووجوه الإعجاز ، وأساليب الاستعمال

العزيز ، ويكفيهم شرفاً أنهم أقرب عهداً منا إلى عصر الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - وصحبه الأبرار .

وبيان معاني المفردات ، وتناسب اتصال الآي بعضِها ببعض ، كما اهتم بذكر أغراض كل سورة وبيان محتوياتها بإجمال، قبل الشروع في تفسيرها.

من خلال دراسة منهج ابن عاشور ـ رحمه الله ـ يتضح لنا أن هذا العالم الجليل جمع بين احترام جهود السابقين ، وتقديرهم ، والإشادة بما قدموه للأمة ، وبين ما يحتاجه العصر من مستجدات ، فنجد مثلاً الفرق واضحاً بين منهجه ومنهج القرطبي من علماء القرن السابع الهجري ، والزمخشري من علماء القرن السادس الهجري ، فتلاحظ أن ابن عاشور ركز على الكثير من العلوم وجعلها في شكل أبواب رئيسة مثل تركيزه على مقاصد الشريعة ، وسياسة الأمة ، ووحدة كلمتها ، وتعليم الناس مع مراعاة الفروق ، وإعجاز القرآن العلمي باعتباره حجة العصر وغيره من أنواع الإعجاز، وما توصل إليه العلم من اكتشافات ، تتمشى مع نهج القرآن الكريم وتكشف عن جزء صغير من أسراره العظيمة .

2 ـ منهج الزرقاني في توظيف علوم القرآن في التفسير (ت 1367 هـ)

سلك الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني ـ رحمه الله ـ منهجاً متميزاً في توظيف علوم القرآن والتفسير، مشيداً بجهود العلماء السابقين ، بقوله : ((ولقد أفرد العلماء كل ناحية من هذه النواحي[1] بالبحث والتأليف ، ووضعوا من أجلها العلوم ودوّنوا الكتب... وكانت هذه الثروة ولا تزال مفخرة نتحدّى بها أمم الأرض ، ونفحم بها أهل الملل والنحل في كل عصر ومِصر))[2] .

ويتجلى منهجه ـ رحمه الله ـ في قوله: ((وسأحاول فيما أكتبه أن أمزُج بين حاجة الأزهريين إلى البحث والتحليل ، وبين رغبات جماهير القراء المعاصرين في تقريب الأسلوب وتعبيد السبيل ، ما وسعني الإمكان... وسأَعرِض ـ بعون الله وتأييده ـ لعلاج الشبهات التي أطلق بخورها أعداءُ الإسلام ، وسدّدوا سهامها الطائشة على القرآن ، ولكن عند المناسبة وسنوح الفرصة. وسأجتزئ في كل مبحث ببعض أمثلة من القرآن الكريم وسأجعل نقاط المنهج المقرر عناوين بارزة بين المباحث التي يقوم عليها هذا الكتاب))[3]

لقد ذكر الزرقاني في كتابه سبعة عشر مبحثاً ، كلها تتعلق بعلوم القرآن ، سأذكر عناوينها فقط وبشكل مختصر ، وهي : ((في معنى علوم القرآن ، في تاريخ علوم القرآن وظهور اصطلاحه ، في نزول القرآن ، في أول ما نزل وآخر ما نزل

---

[1] ـ يقصد بذلك ما سبق ذكره وهو عناية العلماء بلفظ القرآن أدائه، وأسلوبه وإعجازه، وكتابته ورسمه، وتفسيره... ينظر مناهل العرفان في علوم القرآن 1 / 10 .

[2] ـ مناهل العرفان في علوم القرآن ، عبد العظيم الزرقاني ، 1 /11 .

[3] ـ مناهل العرفان في علوم القرآن ، عبد العظيم الزرقاني ، 1 / 11 ، 12 .

من القرآن ، في أسباب النزول ، في نزول القرآن على سبعة أحرف ، في المكي والمدني من القرآن الكريم ، في جمع القرآن وتاريخه ، في ترتيب آيات القرآن وسوره ، في كتابة القرآن ورسمه ومصاحفه وما يتعلق بذلك ، في القراءات والقراء، في التفسير والمفسرين وما يتعلق بهما ، في ترجمة القرآن وحكمها تفصيلا، في النسخ ، في محكم القرآن ومتشابهه ، في أسلوب القرآن الكريم ، في إعجاز القرآن وما يتعلق به .))

ويلاحظ من منهج الدراسة التي قام بها الزرقاني ـ رحمه الله ـ أنه كان يكتب بدافع إيماني وعلمي ، مع استيعابه لقضايا التشكيك التي كان أعداء الإسلام المعاصرون يثيرونها بين صفوف الشباب والمثقفين ، الذين لم يكونوا على علم بالدين ، وما جاء به الكتاب المبين ، وما بيّنه الرسول الأمين ، صلى الله عليه وسلم.

إن تلك الشبهات ، التي ردها الشيخ الزرقاني ـ رحمه الله ـ لم تكن وليدة تطور هذا العصر، ولذلك سعى إلى كشف أصولها وجذورها ، وناقشها مناقشة علمية بالأدلة النقلية الصحيحة ، و بالبراهين العقلية والعلمية الصريحة ، وبيّن أنها ميتة أحياها أدعياء التجديد ، الذين يزعمون أنهم أتوا بمنهج جديد في فهم القرآن وتأويله! وهذا تطور عظيم في علوم القرآن ، حيث يقوم عالم مثل الشيخ الزرقاني ـ رحمه الله تعالى ـ بالرد على هؤلاء المشككين ودحض أقاويلهم بالدليل العلمي المقنع، والبراهين الساطعة ، وهذا بيت القصيد في هذا البحث المتواضع ، لقد قيض الله لهذا الدين رجالاً يدافعون عنه في كل زمان وفي كل مكان ولله الحمد والمنة .

وقد قام الدكتور خالد بن عثمان السبت بدراسة كتاب المناهل وتقويمه[1] ، وبيان ما له وما عليه ، دون أن ينقص من قيمة الكتاب وصاحبه ، وهذه هي أخلاق العلماء، التي يفتقدها هؤلاء الأدعياء، الذين لا يعرفون لعلماء الإسلام قدرهم ، وإن أصابوا!

ولكي نبقى في إطار بيان حقيقة الأمر ، ندرج منهج هؤلاء الأدعياء ومشروعهم المميت لكل فضيلة ، والمحيي لكل رذيلة ، ونورد هنا نموذجاً لما نحن بصدد دارسته بمنهج علمي ، من خلال العروض التي قُدِّمت أثناء إحدى الندوات الدولية،

---

[1] ـ عنوان الكتاب كتاب مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني :دراسة وتقويم في جزأين، طبعة دار ابن عفان للنشر والتوزيع – الخُبَر ، السعودية، الطبعة الأولى، 1418 هـ / 1997م.

التي كان موضوعها حول التقليد والتجديد في التعامل مع القرآن الكريم[1] وقد جاء في الكتيب الذي ضم تقديماً للندوة وعروضاً مختصرة للمشاركين ، أن النص القرآني أصبح منذ القرن العشرين موضوعاً لثلاثة أنواع من التفاسير:

1 ـ القراءات[2] التي تواصل العمل بالتقاليد الإسلامية للتفسير (التفسير بالمأثور، التفسير بالرأي ، التفسير الصوفي... إلخ) .

2 ـ القراءات التي تُعَدُّ امتداداً للتقليد الاستشراقي .

3ـ القراءات التي أنتجها مسلمون مدركون لمأزق التفسير التقليدي والذين يحاولون إخضاع النص القرآني لأدوات ومناهج القراءة الحديثة ، مع الاعتراف به كنصٍّ مؤسِّس لدين استطاع أن يتجاوز حدود الزمان والمكان والثقافات... وبعد تأكيد على مآزق التفاسير التراثية لكونها أنتجت تفسيراً ذا مشروعية مؤسساتية تحول مع مرور الزمان إلى عائق يحول دون نفاذ المسلمين المعاصرين على النّصِّ القرآني... وبعد الدعوة إلى ضرورة السعي للتمييز عند أصحاب القراءة الاستشراقية بين ما هو إيديولوجي غير مقبول ، وبين ما هو علمي... بعد كل ذلك، دعت الكلمة التقديمية للندوة إلى النوع الثالث من القراءة ، وهي القراءة التأويلية ، التي ترى أن مفهوم المعنى يتم في ضوء مكتسبات نظرية التلقي الحديثة [3] ، وبذلك تكون المعاني متغيّرة ونسبية باستمرار[4]! وختمت الكلمة التقديمية بالقول: ((وخلافاً

---

[1] ـ ندوة ((من تفسير القرآن الكريم إلى القراءات الحديثة للظاهرة القرآنية)) نظمتها مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية ، بالتعاون مع مؤسسة كونراد أديناور الألمانية ، يومي 10- 11 / 12 / 2004 بالدار البيضاء بالمغرب .

[2] ـ بمعنى التصورات ، وهذا معنى واضح ، ولكن ذكرته حتى لا يختلط بمعنى القراءات المعروفة عندنا للقرآن الكريم ، مثل قراءة حفص ، وقالون وغيرها .

[3] ـ نتساءل في هذا المقام: هل هذه النظرية الحديثة ستبقى دائما حديثة ، ولو مرت عليها قرون، لتحل محل أصول التفسير وقواعده وضوابطه عند علمائنا المسلمين، الذين دعانا أدعياء التجديد إلى رميها وعدم الالتفات إليها لأنها ـ كما زعموا ، وبئس ما زعموا ـ تحول بيننا وبين النفوذ إلى النص القرآني؟ أم أنها ستأتي نظريات أخرى لتتعامل مع النص القرآني بما تقتضيه طبيعة التدافع بين أصحاب الوحي الحكيم وأصحاب الرأي السقيم .وكلنا يذكر نظرية التطور التي ظهر بطلانها وفسادها علميّاً عند أصحابها ومازلنا ـ نحن المقلدين للغرب ـ متمسكين بها رغم تخلي علماء الغرب عنها .

[4] ـ إن هذه الأحكام الجاهزة والمستوردة لا تستقيم. والتي منها ((متى كانت كلمات القرآن كشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وأن من يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه، والصلاة والصوم والحج والعدل والملائكة والجن والجنة والنار،إلخ...)) هذه الكلمات متى كان مفهومها ـ وهي من المعلوم من الدين بالضرورة ـ متغيراً باستمرار وأنها نسبية ! إنه تلاعب

لاعتقاد سائد فإنه من يمكن تلمس بدايات مثل هذه الثورة النقدية في الحقل الديني والثقافي العربي الإسلامي منذ عقدين من الزمان .إن هناك محاولات نقدية عديدة شرعت في تحرير القول القرآني من شرنقة الانغلاق الوثوقي ، وذلك على وجه الخصوص من خلال إعادة النظر في تقاليد فضلت الفقه على الأخلاقيات وأخضعت الدين للسياسة. وعلى الرغم من أن أصوات أصحاب هذه المحاولات ما يزال يغطيها صخب الخطابات السائدة ويتهددها خطر الإقصاء واللاتسامح، فإنها ترتاد مسالك أكثر فائدة وفعالية من غيرها من حيث تجديد الأسئلة الدينية أو السياسية في الإسلام.

هذا مع العلم أن هذه المحاولات تعاني من ضغط الكثير من الطابوهات التي تمنع من قراءة النص القرآني قراءة نقدية تعبئ مكتسبات العلوم الاجتماعية وذلك على غرار ما حدث بالنسبة للتوراة وغيرها من النصوص المؤسسة لتقاليد دينية معينة))[1]

إن ما سبق ذكره في الكلمة التقديمية، التي دوَّنها أصحابها وطبعوها ووزعوها على المدعوين ، لا يحتاج إلى بيان ، ماذا يريد هؤلاء الأدعياء ؟ إنهم يريدون القطيعة المعرفية مع تراثنا الخالد ، كما فعل أساتذتهم مع التراث الغربي.

وإنهم يريدون تحرير النص القرآني من الذين وصفوهم بأنهم يقمعون أصحاب حرية الفكر والتأويل ، ولا يتسامحون معهم في تجديد أفكارهم وأدواتهم المنهجية! وكأني بهم لم يتلوا القرآن الكريم ، الذي تحدى الذين كذَّبوا الرسول محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالمعجزات التي رأوها ، وبالبراهين العقلية والكونية التي أكثر القرآن من ذكرها لهم ، ومن قبيل ذلك إفحام القرآن لكفار العرب ـ الذين كانوا يفتخرون بالبلاغة والفصاحة فيما بينهم ـ بإعجازه البياني. وهو إعجاز ماض إلى يوم القيامة. وهو من خصوصيات الرسول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى بعد

بالألفاظ ، وتحايل سلولي جديد على النص القرآني للهروب من قطعياته اللفظية والمعنوية ، وعدم التسليم بحاكميته وهدايته ، والتمسك بالمتشابه ، تقليداً لأسلافهم الذين قال فيهم الحق: (ڳ ڳ ڱ ڱ ڲ ڲ ڳ ڳ ں ں ڻ ڻ ڎ ڐ ۀ ہ ۂ ۃ ۄ ھ ھ ہ ھ ے ے ۓ ۓ ڭ ڭ ڭ ڭ ۇ ۆ ۆ ۈ ۉ ۉ ۋ ۋ ۅ ۅ ۆ ۆ ې ې ۉ ې □ □) " سورة آل عمران الآية (7) وأولوا الألباب في الاصطلاح القرآني هم الذين وصفهم الله تعالى بقوله: (ڈ ژ ژ ژ ک ک ک ک گ گ گ گ ڳ ڳ ڳ ڳ ڱ ڱ ڱ ڱ ں ں ڻ ڻ ڈ ڈ ۀ ۀ ہ ۂ ۃ ۄ) سورة آل عمران، الآيتان (190 ، 191) حددت هاتان الآيتان صفات أولي الألباب فهم الذين جمعوا بين الذكر والفكر، وهما وسيلتان لتزكية الروح والعقل معاً، لتكاملهما في المنهجية المعرفية، بشقيها العلمية والعملية، وباستحضار أن الدنيا دار فناء، وأن الآخرة دار بقاء.

[1] ـ لمعرفة المزيد عن هذا المؤتمر راجع الكلمة التقديمية للمؤتمر ص(3) وما بعدها

وفاته ، أما الأنبياء السابقون فتوقفت معجزاتهم بوفاتهم , وهذه لحكم يريدها المولى سبحانه وتعالى . قال تعالى: (ۋ ۋ ې ې ٻ ٻ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □)[1] تتضمن هذه الآية تحدٍّ صريح وواضح وفاضح للكفار ، والله تبارك وتعالى أراد أن يعطيهم فرصة معارضة التحدي بالإتيان بسورة تشبه سورة من سور القرآن ولو كانت سورة الكوثر أصغر سورة ، وأرشدهم إلى توسيع دائرة المشاركين في معارضة القرآن وتحديه ممن يُشهدُ لهم بالكفاءة والقدرة على البيان والفصاحة والبلاغة ـ وهو سبحانه وتعالى يعلم أنهم لن يقدروا على ذلك ـ ليبيّن لهم أنهم غير صادقين في تكذيبهم لرسوله ، فهم يعلمون أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذي عاش بينهم قبل البعثة بأربعين سنة أنه صادق أمين ، ولذلك كانوا يتركون عنده الودائع، ويحكموه في النزاعات التي كانت تحصل بينهم .

إن تكذيب الرسل دأب الكافرين في كل زمان ومكان ، مع علمهم أنهم لا يستندون إلى أدلة أو براهين ، تزكي ما يردّون به الحقَّ. قال تعالى: (□ □ □ □ □ □ □ □ □ ٱ ٻ ٻ ٺ ٺ پپ ڀ ڀ پ پ ڀ)[2] وقال تعالى: (□ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □)[3] هذا والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين .

---

[1] ـ سورة البقرة ، الآية (23) .

[2] ـ سورة النمل ، الآيتان (13 ، 14)

[3] ـ سورة لقمان ، الآية (10) .

الخاتمة

من خلال هذه الرحلة مع هذا البحث المتواضع ، أختتمه بهذه النتائج : لاحظت أن علوم القرآن منها ما هو ثابت وغير قابل للتطوير ؛ لأنه صالح لكل زمان ومكان ويمكن أن يستفيد منها المفسر في أي وقت ، ويكررها كيفما شاء وقد ذكرها علماؤنا السابقون واللاحقون مثل : أسباب النزول ، والناسخ والمنسوخ ، وقصص القرآن ، وقراءات القرآن ، وتسوير القرآن . فهذه العلوم وغيرها ثابتة دائماً ، ونلاحظها متكررة عند علماء التفسير وهناك بعض العلوم التي يمكن أن تتطور أو تتغير مع الزمن ، لضرورات عصرية لذا تجدها ذكرت بوضوح في تفاسير المتأخرين مثل : مقاصد الشريعة العامة والخاصة ، سياسة الأمة ، العبرة من قصص السابقين ، أيضاً الترغيب والترهيب ، والإعجاز العلمي القرآني خاصة الاكتشافات العلمية التي لم تكن موجودة ، ولم يتوصل إليها السابقون وما فيها من حجج وبراهين لمن أراد أن يتعرف على نور القرآن العظيم ، أيضاً الرد على الشبهات وأقوال المشككين فهذه إضافة إلى علوم القرآن لم تكن موجودة وإنما أوجدتها الضرورة عندما ظهر المشككون وخصوم الشريعة ، ظهر من الأمة من يتصدى لهم بالبراهين الساطعة من الكتاب والسنة والعلم الصافي .

والله أعلم وصلى الله وسلم على سيدنا محمد

قائمة المصادر والمراجع

المصادر والمراجع المعتمدة في البحث:

أولاً : القرآن الكريم برواية الإمام حفص عن عاصم .

1- الإتقان في علوم القرآن، للإمام جلال الدين السيوطي، عالم الكتب، بيروت، بدون تاريخ.

2- البرهان في علوم القرآن، للإمام بدر الدين الزركشي، بتحقيق محمد أبو الفضل، دار الفكر، ط3، 1980.

3- الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت 671 هـ) دار ابن حزم، ط 1- 1425هـ / 2004م .

4- الجمع بين القراءتين للدكتور طه جابر العلواني، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط1،2006 .

5- السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل احداث (دروس وعبر) للدكتور محمد محمد الصّلاّبي، دار ابن كثير دمشق –بيروت –ط ط3، 1426هـ / 2005م

6- من تفسير القرآن إلى القراءات الحديثة للظاهرة القرآنية ، وهو عبارة عن كتيب ضم برنامج الندوة الدولية والكلمة الافتتاحية لموضوع الندوة والعروض المختصرة للمشاركين فيها ، نظمتها مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية ، بمقرها الكائن بشارع الكورنيش ، عين الذياب / أنفا، الدار البيضاء بالمغرب، بالتعاون مع مؤسسة كونراد أديناور الألمانية، وذلك يومي الجمعة والسبت 10 و 11ديسمبر 2004.

7- مناهل العرفان في علوم القرآن، للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، دار الفكر، بدون تاريخ.

9- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (ت 538هـ) دار الفكر، بيروت، ط1-1397هـ / 1977م.

10- الوحدة البنائية للقرآن المجيد (سلسلة دراسات قرآنية:3) للدكتور طه جابر العلواني، ط 1، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 1427هـ / 2006م،

فهرس الموضوعات

الموضوع رقم الصفحة

مقدمة .... أ

المبحث الأول : تعريف علوم القرآن 1

أقسام المهتمين بعلوم القرآن قديماً وحديثاً 2

المبحث الثاني : نماذج من توظيف علوم القرآن في التفسير عند القدامى 6

أولاً : منهج الزمخشري في توظيف علوم القرآن في التفسير 6

ثانياً : منهج القرطبي في علوم القرآن والتفسير 8

المبحث الثالث : نماذج من توظيف علوم القرآن في التفسير عند المحدثين.................10

أولاً ـ منهج الطاهر بن عاشور في توظيف علوم القرآن في التفسير 10

ثانياً : منهج الزرقاني في توظيف علوم القرآن في التفسير 12

الخاتمة 18

قائمة بأهم المصادر والمراجع 19